إحياء النفوس باستدراك ما فاتها رغبةً في التعويض

العشر الأواخر.. موسم الخيرات

المؤمن يعلم أن هذه المواسم عظيمة والنفحات فيها كريمة لذا فهو يغتنمها ويرى أن من الغبن تضييعها

غداً تُوفّى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

من رحمة الله بالعباد وهو الغني عنهم أن جعل أفضل أيام رمضان آخره؛ إذ النفوس تنشط عند قرب النهاية، وتستدرك ما فاتها رغبةً في التعويض، والعشر الأواخر هي خاتمة مسك رمضان، وهي كواسطة العقد للشهر لما لها من المزايا والفضائل التي ليست لغيرها.

ولذا كان رسول الله يحتفي بها احتفاءً عظيمًا، ويعظمها تعظيمًا جليلاً، وما ذاك إلا لعلمه بفضلها وعظيم منزلتها عند الله تعالى وهو أعلم الخلق بالله وبشرعه المطهر.

لماذا نستغل العشر الأواخر؟

- إن المؤمن يعلم بأن هذه المواسم عظيمة، والنفحات فيها كريمة؛ ولذا فهو يغتنمها، ويرى أن من الغبن البين تضييع هذه المواسم، وتفويت هذه الأيام، وليت شعري إن لم نغتنم هذه الأيام، فأي موسم نغتنم؟! وإن لم نفرغ الوقت الآن للعبادة، فأي وقت نفرغه لها؟!

لقد كان رسول الهدى -عليه الصلاة والسلام- يُعطي هذه الأيام عناية خاصة ويجتهد في العمل فيها أكثر من غيرها؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها»، «وكان إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» (متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها)، وفي المسند عنها قالت: «كان النبي يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كانت العشر شمر وشد المئزر».

أيها الناصح لنفسك: تذكر أنها عشر ليال فقط تمر كطيف زائر في المنام، تنقضي سريعًا، وتغادرنا كلمح البصر، فليكن استقصارك المدة معينًا لك على اغتنامها.

تذكر أنها لن تعود إلا بعد عام كامل، لا ندري ما الله صانع فيه، وعلى من تعود، وكلنا يعلم يقينًا بأن من أهل هذه العشر من لا يكون من أهلها في العام القادم، أطال الله في أعمارنا على طاعته.

وهذه سنة الله في خلقه «إنك ميت وإنهم ميتون» [الزمر: 30]. وكم أهلكنا الشيطان بالتسويف وتأجيل العمل الصالح! فها هي العشر قد نزلت بنا، أبعد هذا نسوف ونؤجل؟!

تذكر أن غدًا تُوفّى النفوس ما كسبت، ويحصد الزارعون ما زرعوا، إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فبئس ما صنعوا.

تذكر أن فيها ليلة القدر التي عظّمها الله، وأنزل فيها كتابه، وأعلى شأن العبادة فيها، فمن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه» (أخرجه الشيخان).

والعبادة فيها تعدل عبادة أكثر من ثلاث وثمانين سنة، قال تعالى: «ليلة القدر خير من ألف شهر» [القدر: 3].

فلو قدر لعابد أن يعبد ربه أكثر من ثلاث وثمانين سنة ليس فيها ليلة القدر، وقام موفق هذه الليلة وقبلت منه، لكان عمل هذا الموفق خير من ذاك العابد، فما أعلى قدر هذه الليلة! وما أشد تفريطنا فيها! وكم يتألم المرء لحاله وحال إخوانه وهم يفرطون في هذه الليالي وقد أضاعوها باللهو واللعب والتسكع في الأسواق، أو في توافه الأمور!!

تذكر أنك متأسيًا بخير الخلق محمد، وقد تقدم بعض هديه خلال العشر، فاجعله حاملاً لك لاغتنام هذه الليالي الفاضلة.

أعمال يجتهد فيها الصادقون خلال العشر

القيام في هذه الليالي، وفضل قيامها قد جاءت به النصوص المعلومة، واجتهادات السلف يعلمها كل مطلع على أحوالهم، بل ومن عباد زماننا من سار على هديهم.

يذكر أحد الإخوة أن رجلاً معروفًا في مسجد النبي يصلي التراويح مع الإمام ثم ينتقل بالصلاة إلى صلاة القيام، ثم يصلي مع الجماعة صلاة القيام ثم يصلي إلى قبيل الفجر، هذا ديدنه كل عام.

أرأيت الهمة؟! هل عرفت كم نحن كسالى؟!

ومن مشايخنا من يختم القرآن في هذه العشر كل ليلتين مرة في صلاة القيام.

ويبقى الأمر المهم، ما الذي جعلهم يقومون وينامون؟ وينشطون وتكسل؟ إنه الإيمان واليقين بموعود الله الذي وعد به أهل القيام، ولهذه الليالي مزايا على غيرها، أضف إلى اللذة التي تذوقوها حتى ألزموا القيام.

وما أجمل ما قاله بعض العلماء عن لذة المناجاة، حيث قال: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم.

ولنتعلم -يا رعاك الله- أن البعد عن الذنوب والمعاصي أثر في التوفيق للطاعة، فالطاعة شرف ورحمة من الرحمن لا ينالها إلا أهل طاعته.

فلندع عنا التواني والكسل، ولنسع للجد في العمل، فعمّا قليل نرحل، وبعد أيام نغادر هذه الدنيا، ونخلفها وراءنا ظهريًا، فلماذا التسويف؟!

اغتنمها في الدعاء: فدعاء ليلة القدر مستجاب، تذكر حاجتك لربك ومولاك، فمن يغفر الذنوب إلا هو؟ ومن يتوب على العمل الصالح إلا الكريم سبحانه؟ ومن ييسر العسير، ويحقق المطلوب ويجبر المكسور إلا صاحب الفضل والجود؟

فاغتنم هذه الفرصة، قُرْبَ دعوة صادقة منك يكتب الله لك رضاه عنك إلى أن تلقاه، ولا تنسى الدعاء لإخوانك فهو من علامات سلامة القلب، وأيضا الدعاء للمسلمين من الولاة والعامة، ولا تحتقر دعوة؛ قُرْبَ دعوة يكون فيها الخير لأمتك.

ساعات السحر

في هذه العشر كثير من الناس يكونون مستيقظين هذه الساعة، وهو وقت شريف مبارك، وتعجب ممن يمضون هذه الساعة في الأحاديث الجانبية، أو لا يرتبون قضاء حاجتهم الضرورية قبل هذا الوقت، فينشغلون بها عن اغتنامه.

أما الذين عرفوا قيمة هذه الساعة وعلو منزلتها فلا تجدهم إلا منكسرين ومخبتين فيها، قد خلا كل واحد منهم بربه يطرح ببابه حاجته، وبساله مطلوبه، ويستغفره ذنبه، إلا ما أجلها من ساعة! وما أعظمه من وقت! فأين المغتنمون له؟!

احرص على اعتكاف العشر كلها -دون التفريط بواجب من حق أهل وولد- فإن لم تستطع فلا أقل من الليالي أو ليالي الوتر، فقد كان هذا هديه -عليه الصلاة والسلام- في هذه العشر، ويُشرع للأخت المسلمة أن تعتكف كالرجال إذا تهيأت لها الأسباب، وأمنت على نفسها، أو على الأقل الليالي.

ومن بشائر الخير ما نراه من كثرة المعتكفين والمعتكفات في الحرمين وفي مساجد الأحياء في مدن وقرى العالم الإسلامي، ولنحرص على اغتنام هذا الوقت بالطاعة، وملئه بما ينفع، ومجاهدة النفس على ذلك.

أوصيك أخي بتطهير قلبك، فهذه أيام الطهارة والتسامح والتجرد لله تعالى، واجعل حظ النفوس جانبًا، فأنت ترجو المغفرة، وتأمل عفو ربك، وليكن شعارك «العفو عن الناس وعفن ظلمك».

واجعل هذا من أرجى أعمالك هذه الليالي، ولله در ابن رجب في تطبيقه يوم قال تعليقًا على حديث عائشة «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفو عني»، إذ يقول: من طمع في مغفرة الله وعفوه فليعفُ عن الناس؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

اجعل بعض مالك للصدقة ولا تحتقر القليل فهو عند الله عظيم مع صدق النية، وتذكر أن المال غادٍ ورائح، وما تنفقه باقٍ لك، وأنت ترجو قبول دعائك هذه الليالي، وللصدقة أثرها في قبول الدعاء والإنابة على العمل، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه.

ونحن في شهر عظيم، ينعم الله به على عباده، ويكرمهم بفضائل ومزايا تجعلهم من الله أقرب، فالأجور مضاعفة والعبادات متنوعة، وقد خص هذا الشهر العظيم بمزية ليست لغيره من الشهور، وهي أيام عشرة مباركة هن العشر الأواخر، واليكم مع هذه العشر المباركات هذه الوقفات:

الوقفة الأولى: هذه العشر من أفضل ليالي العام إن لم تكن أفضلها على الإطلاق، وقد كان لرسولنا عناية خاصة بها، فإنه كان يحرص على العبادة والطاعة في العشرين الأولى من شهر رمضان ألا أنهيزداد عبادة وتقربًا إلى ربه في هذه العشر الأواخر خاصة، وهولنا الأسوة والقدوة، تجد ذلك الأمر حين تخبر زوجه عائشة -رضي الله تعالى عنها- فتقول: «كان النبي إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله». وكانت تقول رضي الله عنها: «كان رسول الله يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره» [3].

الوقفة الثانية: هذه العشر -أيها المبارك- مجال رحب وواسع للتزود من هذا الخير المتمثل بتنوع العبادات والطاعات المتاحة للمسلم:

فمنها الصلوات المفروضات، والمسنونات، والصيام، ومنها قيام الليل والذكر، ومنها قراءة القرآن، ومنها -بل مما اختص بفضلها في هذه الأيام- الاعتكاف؛ ففي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «كان رسول الله يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرينا». وإنما كان يعتكف النبي في هذه العشر التي يُطلب فيها ليلة القدر؛ قطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخليًا لمناجاة ربه وذكره، والتقرب إليه ودعائه.

فإن لم يستطع المسلم أن يعتكف العشر كاملة فليحرص على الإيتار منها، أو ليغلبَنّ في أن يثبت شيئًا من الوقت في المسجد، فقد عدّ ذلك بعض أهل العلم من الاعتكاف، وفضل الله واسع، وخيره كثير.

فليحرص أحدنا على الفرائض وعلى النوافل وليبشر، فالبشرى جاءت من الحبيب المصطفى حينما أخبر في الحديث القدسي عن ربه أنه قال: «وما تقرب عبدي إليّ بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

الوقفة الثالثة: اجتهد -يا رعاك الله- في تحري ليلة القدر والاستعداد لها في هذه العشر، فقد قال الله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر: 3]. وألف شهر مقدارها بالسنين ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. قال النخعي رحمه الله: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر.

ثم إن النبي قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر ما تقدم من ذنبه». وهذه الليلة المباركة في العشر الأواخر، كما قال النبي: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان».

وهي في الأوتار أقرب من الأشفاع؛ لقول النبي: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان».

وهي في السبع الأواخر أقرب؛ لقوله: «التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبَنّ على السبع البواقي».

وهذه الليلة لا تختص بليلة معينة في جميع الأعوام، بل تنتقل في الليالي تبعًا لمشيئة الله وحكمته، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عقب حكايته الأقوال في ليلة القدر: «وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأواخر وأنها تنتقل». وللإمام النووي كلام في هذا المعنى، «قال العلماء: الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لها ليلة لاقتصر عليها». وعليه فاجتهد في قيام هذه العشر جميعًا، واكثر من الأعمال الصالحة فيها، وستظفر بها يقينًا بإذن الله.

ومن هذا المنطلق فلا يلتفت إلى ما يشاع كل عام أن فلان أو فلان رآها في المنام في ليلة بعددها، فإن هذا المتحدث كأنه يقول للناس: لا تقوموا إلا هذه الليلة، ولا تعبدوا الله إلا في هذه الليلة، وهذا تحرُّص واضح، وادعاء ليس عليه دليل.

وإذا كانت أخفيت عن النبي، فمن باب أولى أن تخفى عن غيره! أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: «اعتكف رسول الله العشر الأوسط من رمضان فلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما انقضين أمر بالبناء فقوّض، ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس فقال: يا أيها الناس، إنها كانت أبيّنت لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يحتقان [11] معهما الشيطان، فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

قال أحد رواة الحديث: قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا. قال: أجل، نحن أحق بذلك منكم. قال: قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال: إذا مضت فالتي تليها الثنتان وعشرون وهي التاسعة، فإذا مضت ثلاث وعشرون فالتي تليها السابعة، فإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة.

الوقفة الرابعة: أن من المتأكدات استحبابًا في هذه الأيام ما كان النبي يفعله؛ فقد كان النبي كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي، قال سفيان الثوري رحمه الله: «أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك».

إن هذه العناية بأمر الزوجة والأهل والأولاد تجعل من البيت المسلم يعيش في روحانية رمضان هذا الشهر الكريم، عندما يقبل الأب والأم والبنين والبنات على الصلاة والعبادة والذكر وقراءة القرآن، وتحفزهم على ذلك الخير؛ فمن دعا إلى هدى كان له من الخير والأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

لقد كان النبي يخصّ العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يقوم بها في بقية الشهر، ومن هذه الأعمال:

1 - إحياء الليل: ففي حديث عائشة قالت: «كان النبي يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر شمّر وشدّ المئزر». ويحتمل أن يراد بإحياء الليل إحياء غالبه، ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة، قالت: «ما أعلمه قام ليلة حتى الصباح».

2 - ومنها: أن النبي كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيرها من الليالي، قال سفيان الثوري: أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. وقد صح عن النبي أنه كان يطرق فاطمة وعليًا ليلاً فيقول لهما: «ألا تقومان فتصليان». وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يُوتر.

وورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة، وتنضح الماء في وجهه؛ ففي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» [طه: 132].

وكانت امرأة أبي محمد حبيب الفارسي تقول له بالليل: «قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا».

يا نائمًا بالليل كم ترقد
قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته
وردًا إذا ما هجع الرُّقد
من نام حتى ينقضي ليله
لم يبلغ المنزل قبل أو يجهد

3 - ومنها: أن النبي كان يشد المئزر، واختلفوا في تفسيره؛ فمنهم من قال: هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة. وهذا فيه نظر، والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون ومنهم سفيان الثوري، وورد تفسيره بأنه لم يأتِ إلى فراشه حتى ينسلخ رمضان، وفي حديث أنس: «وطوى فراشه، واعتزل النساء».

وقد قال طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى: «فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» [البقرة: 187]: أنه طلب ليلة القدر، والمعنى في ذلك أن الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر؛ لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح، فيفوتهم طلب ليلة القدر، فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل، خصوصًا في الليالي المرجو فيها ليلة القدر، فمن ها هنا كان النبي يصيب من أهله في العشرين من رمضان، ثم يعتزل نساءه ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

4 - ومنها تأخيره للفطور إلى السحر: رُوي عنه من حديث عائشة وأنس أنه كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحورًا، ولفظ حديث عائشة: «كان رسول الله إذا كان رمضان قام ونام، فإذا دخل العشر شدّ المئزر، واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين، وجعل العشاء سحورًا» [3].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي، قال: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر»، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله؟ قال: «إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مُطعِم يُطعمني وساقٍ يسقيني» [4].

وظاهر هذا يدل على أنه كان يواصل الليل كله، وقد يكون إنما فعل ذلك لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكن ذلك مضعفًا له عن العمل؛ فإن الله